

الأراجيز النسوية لهددة وترقيص الأطفال.

ودورها في تكريس النزعة الذكورية لدى المرأة

د-أحمد زغب

جامعة الوادي-الجزائر

Abstract:

Women son gis marginalized in studies,because women are so in the patriarchal society, this leads us to explore the depths of the lyrics feminist texts; and look for the reasons inderlying in the submiision of women to masculinity..

تمهيد: للمجتمع النسوي خطاب ينتجه، مهما كان مهماشا، ويعبر عن أفكار وهواجس هذا المجتمع النسوي، ويعبر عن نزعة ذكورية مهيمنة على الذهنية النسوية التي تسهم في تكريس الذكورية، هذا الخطاب يتمثل في الأغنيات والحكايات، والألغاز وغيرها.. هذه الأشكال التعبيرية معظمها لا تلقى الاهتمام الكافي من الدارسين. فلعل رؤى متنوعة تكشف عن خفايا وأنساق مضمرة للخطابات المهمشة، منها الأغنية التي سمينها في هذه الورقة -الأرجوزة النسوية.

للإنسان ميل فطري إلى الغناء، والأرجوزة أخفّ أنواع الغناء تتميز بخفتها وسهولة حفظها وأدائها، وقد قسم الباحثون الأغاني التي تغنى للأطفال إلى نوعين: أغاني الهددة أو تحريك المهد Berceuses والهدف منها تنويم الأطفال الرضع. أغاني الترقيص أو المراقصة les enfantines وهي تتصل بالمداعبة والملاعبة والتدليل والترقيص والتربيت.

وهذا الضرب من الغناء ، وهو ما يقابله في التراث العربي الأراجيز، لذلك اقترحنا على أغاني النسوة الارتجالية عامة والخفيفة والمعتمدة على الشفاهية في الإنشاد والتلقي والتداول مصطلح الأرجوزة وجمعها أراجيز.

أغاني المهد أو الهددة : تنتشل الأمهات بتحريك المهد برفق حتى ينام الرضيع، وهو قطعة لحم رخوة معرض لكل أنواع الأمراض، لذلك تستدعى الأم القدرات الغيبية المقدسة قدرة الله ، الأنبياء القديسين الأولياء الصالحين الذين لهم حظوة عند الله ليحفظوا صغيرها من الشرور المحدقة به، ومن ثم كما يقول يوسف نصيب أن أغاني المهد تعتبر بمثابة التعويذة السحرية التي تحمي الطفل من كل الشرور والآفات الطبيعية وغير الطبيعية¹

ومن الطبيعي أن الأم في هذه الترنيمات التي ترددها بصوت هادئ خافت لا تكتفي بالدعاء لطفلها، إنما تعبر عن كل ما يجيش في صدرها من أمان وآمال بأن يكبر هذا الطفل وتفرح بختانه ثم يكبر ويدرس وينجح في الدراسة ويصبح رجلا ذا مكانة مرموقة في المجتمع وبأن يتزوج الفتاة الجميلة التي ترتضيها له، ويكرمها بان يأخذها معه إلى البقاع المقدسة وما إلى هذه الأمنيات والآمال العذاب ، كل ذلك تردده الأم بصوت مفعم بالحنان والعواطف المتدفقة بالعطف والرحمة.

ويلاحظ الدكتور أحمد أبو السعد أن هذه الأراجيز عند سائر الشعوب تتشابه في موضوعاتها تشابها كبيرا؛ إذ أنها مهما تكن لغتها ومهما يكن لحنها فلا بد ان تدور في معاني محددة ، نلخصها في تنويم الطفل، سرد حكايات في شكل أغاني خفيفة، تخويفه بالكائنات المرعبة كالغول أو الكلب، تعدادا صفات الطفل كما ترجوها الأم ان تكون، والتنبؤ بمستقبل الطفل الباهر، تلقينه بعض المعلومات البسيطة، كأن

تكون عن رغيغ الخبز كيف تحول من قمح يطحن فيتحول إلى دقيق، ثم يعجن ثم يوضع في صفيح ساخن أو فرن فيتحول إلى خبز ثم يؤكل...الخ².

ونلاحظ أن الكاتب دمج بين أغاني الهددة وأغاني الترقيص، وجاء بأمثلة عن التشابه في الشعوب الإنسانية، بين البلاد العربية الإسلامية المتباعدة أولا العراق تونس مصر...الخ ثم بلدان العالم في إفريقيا وأوروبا وآسيا...الخ.

والمدونة التي بين أيدينا من أراجيز النساء في هددة الأطفال أو ترقيصهم لا تخرج كثيرا عن هذه الموضوعات، فقد جمعنا بمساعدة الطالبات في تخصص الأدب والثقافة الشعبية عددا كبيرا من الأراجيز النسوية يربو عن مائة أرجوزة، من مختلف القرى والمدن والمدائر والأرياف وحتى البوادي.

ولذلك رأينا أن نخصص هذه الفقرة لاستعراض مختلف المضامين التي تعبر عنها أرجوزة المهد Les Berceuses من جهة، وأرجوزة الترقيص les enfantines من جهة أخرى، ونظرة إلى الشكل الفني للغة والإيقاع واللحن بما أن الأغنية تتساوى فيها حظوظ الكلمة واللحن والأداء.

من البديهي أن الطفل الذي يستمع إلى الأرجوزة ويفهم منها ولو جزئيا بعض المعاني، الترقيص، غير أن الطفل الرضيع الذي يخامره النوم وربما يعاني مغصا يجفل النوم عن عينيه: الهددة، يحس بها إحساسا بالنغم والحركة ولا يدرك المعاني كما يدرك الطفل الذي أخذ يتعلم اللغة تدريجيا، لذلك نفترض سلفا أن أغاني المهد الهددة تخلف شكلا ومضمونا عن أغاني الترقيص.

ومع ذلك يمكن أن نتوقع الفارق بين هددة أو ترقيص كل من البنت والولد الذكر. والنزعة الذكورية المهيمنة على ذهنيات النساء، ومبررات رضوخهن لهذه

الهيمنة، وهذا هو الهاجس الذي دفعنا إلى هذا النوع من البحث، فعلى الرغم من أن الخطاب النسوي مهمش ومحقر على به من المعارف المطموسة، فلا بد من الإصغاء إلى صوت المرأة كما أشار الدكتور محمد حسن عبد الحافظ، لعلنا ننقل إلى استنباط رؤى اجتماعية وثقافية، لمجابهة الواقع بتعقيده³، فهو ض المجتمع لا يمكن أن يتم بتهميش شطر، هو في غاية الأهمية.

أراجيز الهددة ومعانيها: يبدو أن أراجيز الهددة غالبا مجهولة المؤلف، وفي القليل النادر تذكر الشاعرة (= المرأة الراجزة) اسم طفلها واسم أبيه، وتتميز الأرجوزة عن غيرها في الشكل أو في المضمون بذكر قصة معينة، فيتعرف عليها المجتمع وينسبها إلى صاحبها، لكنها بمرور الزمن قد تتحور في كلماتها وربما اختفت منها بعض الإشارات الدالة على مبدعتها، فتحتضنها الجماعة، وتدخل في عداد التراث الجمعي المجهول المؤلف.

استدعاء رموز المقدس: عندما يتناول العلماء ما يميز الإنسان عن باقي الكائنات، يصفونه مرة بالحيوان الناطق ومرة بالمفكر، ويرى السواح أن لا حرج من إضافة ميزة أساسية للإنسان وجدت معه واستمرت معه في كل العصور، وهي الكائن المتدين، فبالإضافة إلى الأدوات الحجرية للإنسان الأول، ترك لنا شواهد عن نشاطه الفكري تشير بوضوح إلى بوادر دينية لا لبس فيها، وتبين ظهور الدين إلى جانب التكنولوجيا كمؤشرين أساسيين على ابتداء الحضارة الإنسانية⁴

والمقدس هو الكائنات والأشياء التي تقوم النواهي الصارمة بحمايتها وعزلها ويقابله المذنب وهو ما تنطبق عليه تلك النواهي والتي يجب أن تبقى بعيدة عن الأشياء الأولى، هذا تعريف إيميل دوركهيم الذي أورده معجم الأنتولوجيا

والأنثروبولوجيا⁵، صحيح أن صاحبي المعجم لم يأتيًا بأمثلة توضيحية، لكن يبدو أن دوركهائم يركز على العلاقة المفارقة بين المقدس والديني أو المدنس، فبقدر ما ان المقدس ينتمي إلى الإلهي يتميز بالتعالى على الديني ويتعالى على حياة الجماعة، لكن الأراجيز النسوية والسياقات التي تنشأ فيها لاسيما أراجيز الهددة وحتى ترقيص الأطفال وحتى التعويذات السحرية وأغاني العمل... الخ تستدعي الإلهي وكل ماله صلة بالإلهي من أنبياء وقديسين وأولياء صالحين ، وحتى أماكن ذات صلة بالإلهي كدور العبادة، والأماكن التي لها علاقات عريقة بالدين: الكعبة، جبل عرفات.... الخ.

باعتبارها رموزا مقدسة تشير إلى علاقة ما بالإلهي، تستدعي للاستعانة بها أو لاسترضائها في أمر دنيوي، كان تدعو طفلها للنوم وتدعو الله في ذات الوقت أن يكون معه بالرفق والحفظ:

نَنْي نَنْي نَنْي *** مَعَاكَ رَبِّ حَنِّي
نَنْي سَعْدِي بِيكَ *** يَارَبِّ يَخْلِيكَ
نَنْي يَاحَنَانِي *** وَمَعَاكَ السَّبْحَانِي⁶.

هذه أغنية مهد أي berceuse رأينا كيف استدعيت فيها القوى الإلهية، من أجل نوم الطفل، وحفظه من الآفات المحدقة به، الأمر الذي ينشئ علاقة أخرى للمقدس بالديني، خلافا للعلاقة المفارقة التي تفهم من كلام دوركهائم، وهي علاقة تراتبية، إذ يدخل الديني في عداد المقدس، المقدس ههنا لا يتعالى على الديني، فالعلاقة بين المقدس والديني ليست تعارضية دائمة كما يرى إيفانز بريشارد⁷، فمكونات العالم الديني ليست غائبة عن مجال المقدس... فقد تكون وظيفة دينوية

بسيطة، مثل شرب الماء وإرواء العطش وفي نفس الوقت وظيفة قدسية يؤشر عليها شكر الله وحمده⁷.

وبين العالم العلوي الغيبي المقدس والعالم الدنيوي المحسوس، وبين العالم القدسي الذي صدر عنه العالم الدنيوي أي الظواهر المحسوسة بما فيها الإنسان وأشكال الحياة الأخرى، يتصل العالم القدسي -كما يرى السواح بالعالم المحسوس بواسطة قوة سارية تجمع بين المستويين في دائرة واحدة باطنها الألوهة وظاهرة ما لا يحصى من الظواهر الجامدة والحية⁸.

فبين العالم القدسي علاقة احتواء دائمة تجعل الإنسان لا يطمئن على نشاطه الديني حتى يضيف عليه القداسة ، أو كما يقول مرسيا إلياد)) بسبب رغبة الإنسان المتدين في العيش في عالم مقدس))⁹

ومن أراجيز المهد المعتمدة على قوة المقدس، وترديد لفظ الله متزامنا مع التربيث على جسد الطفل من أجل تنويمه، وبالإضافة إلى لفظ الجلالة نجد رمزا دينية أخرى : رسول الله ، زمزم البيت... الخ:

الله الله الله .***. صلي ع رسول الله.

الله الله الله ***يا حبيب الله

احنا طفنا بالبيت ***وما زمزم شربناه

أمنيات وتطلعات:

تتطلع الأم إلى أن يشب وليدها عن الطوق، أن تفرح بحفل ختانه ، أو بعرسه، أو بان يصبح رجلا ذا صيت في قومه يأمر وينهى، أو أن تسافر برفقته إلى البقاع المقدسة لداء فريضة الحج ، فمن أمنياتها بان تفرح بختانه تقول إنها تنصب راية،

والراية لإشهار العرس يراها الناس من بعيد فيعلمون ان في بيت فلان حفل ختان
 فيهرعون إليه لمشاركته فرحه، وهي تدعو اخواتها اللاتي عبرت عنهن بنات الداية
 (= أمي) اللاتي ابتعدن عني في السكن:

نديرْ لُولْدِي رَايَة وَزَعَارِيدْ مِنْ لُوحَة لَفْجَارْ
 يُجِنْ لِي بَنَاتُ الدَّايَة اللَّي عَنِّي بَعْدُو بِالْدَّارْ

ومن الأمنيات التي تتمناها الم لولدها أن لا يكون له نظير بين عمومته ، وأن
 يسافر معها إلى البقاع المقدسة وهي منتهى أحلام المرأة القروية المسلمة ،في
 الأزمان الغابرة وحتى أيامنا:

سَعْدِي بِيْه سَعْدِي بِيْه *** يَا رَبَّ يَخْلِيْه
 سَعْدِي وَلْدِي جَانِي *** وَحَجَّجْنِي وَأَذَانِي
 سَعْدِي بَهَا الْوَلَدُ *** رَاوْ مَا كَيْفَه حَدَّ¹⁰
 عَنْهُ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ.

ما يلاحظ أن القوى الإلهية حاضرة في جميع المضامين، ومن الأراجيز
 المشهورة في الجنوب الشرقي الجزائري، واستهوت المغنين، فحولوها إلى أغنية
 متداولة، أغنية سعدي بيه، وهي تطلعات الم لأن يكون ابنها رجلا، وينجب أطفالا ،
 وتقوم هي بلف القماطة وهي قطعة القماش التي يلفون بها جسم المولود الجديد،
 تلف البدري أو الطفل الأول

يَا سَعْدِي بِيْه عَادْ لِي رَا جِلْ يَكْبُرْ وَنَقْمَطْ بَدْرِيْه
 عَادْ لِي كَبِيرْ فَرَحَه قَرَّبَ بَابَاهْ يُصِيرْ
 رَانِي دَعِيَّتَه دَعْوَة الْخَيْرْ حَزَامْ وَسِيرْ نِتَحَرَّمْ بِيْه.

يا والله حالة ولدي الغالي سيد الرجاله
نطلب ربّي يَذَوِّقْنِي فَالَةَ صَلَاةِ الْهَادِي يُعَقِّبُ عَنْ تَالِيَةٍ.

وحين ننظر إلى الأغنية السابقة، ندعم رأي برنارد كوزان Bernard Cousin الذي يرى أن النظر إلى الكلمات منعزلة عن سياقها، لا شك فإنه يرى ببساطتها وسذاجتها، لكنها حين تتحد باللحن مع الإيقاع والأداء، ويمتزج كل ذلك ويتفاعل تفاعلا لطيفا، وتصبح أغنية ناجحة تتداولها الألسن وتتردد في المحلات، يمكن أن تحرك شحنة عاطفية قوية نحو الحنين إلى الماضي وحضن الأم؛ فتقبض الحنجرة، وتبتلل العينان وتشعرنا بهذا الشعور العميق والحنين إلى الطفولة المفعمة بالبراءة والرفقة¹¹.

وفي الواقع فإنه لا يوجد حاجز واضح بين أراجيز الهددة و أراجيز الترقيص، فمعظم هذه الأغاني تغنى للغرضين معا، ومع ان الأرجوزة السابقة تعبر عن الأمنيات والتطلعات؛ تطلعات الأم إلى ان يتزوج ابنها وينجب، مما يجعلها إلى أغاني الترقيص أقرب؛ إلا أن وجود القمطة¹² (اللفة)، إذ نتصور أنها تقمّطه وتنمى أن تقمط ابنه الأكبر، أي يتزوج وينجب في حياتها، تجعل إمكانية تصنيفها في الهددة وارد أيضا.

أراجيز الترقيص: جاء في اللسان أرقصت المرأة صبيها ورقصته نزته¹³، أي حركته في المنز وهي المهد، وليس من الضروري أن يكون الطفل في المهد، فعندما تحمله الأم بين يديها وتضعه على ركبتيها ثم تحركه بحركة اهتزازية، والإمساك بكننا يديّة وإيقافه على قدميه ثم تحريكه ليأخذ في التماسك، ورفع في

الهواء والتصفيق له، واللعب معه، وتشجيعه على المشي أو الحبو، ومن ترقيص الطفل على الركبة جاءت التسمية باللغة الإنجليزية Knee dandling song. أمّا صيغة الترنيمة فهي نفسها أو تشبهها التي رأيناها في أغاني المهد ، فالجملة اللحنية واحدة تتكرر بلا ملل، وهي جملة بسيطة لا تزيد على نغمات محدودة، وأما المضمون فهي تختلف شيئاً قليلاً عن مضامين أرجوزة التنويم. فمن المضامين الأمنيات والتطلعات، وذكر المحاسن أو الوعد بهدية أو لعبة أو حلوى، أو تمنيه بأن يأتي أبوه من السفر ويحضر لهم هدايا، وقد تسرد على مسمعه حكاية في شكل أغنية خفيفة عن القط والفأر وغيرها من الفابولات ، وقد تخوفه من الغول وفي كل ذلك لا تقتأ تذكر اسم الله بمختلف صفاته: الحنين، العالي، ربي السبحان، الكريم... الخ دون نسيان الرموز الدينية كالنبي وسيدي فلان أو فلان من الأولياء الصالحين أو العبارات الشعائرية، كما رأينا في المقطوعة السابقة: قل هو الله احد، وهي آية قرآنية من سورة الإخلاص، استخدمت كتعويذة والصلاة على النبي الهادي والله الله... الخ .

كمل علي يا فرحة بالي *** ولدي هزيتة في أحضاني

عني الله يدوم أفرحي *** دزو للوالدة قولها أراحي

نحمد ربي العالي كمل عني *** وطير عَليَّ شيطانِي.

نرى أن الم تعبر عن فرحتها بهذا الولد، وتحمد الله أن استجاب دعاءها، وتطلب من مستمعيها أن يدعوا لها والدتها لتفرح معها، (وطير شيطاني) تشير الهواجس التي كانت تتنابها قبل أن ترزق بهذا الولد، ربما لخشيته من أن يكون الجنين بنتا، فتبقى غصة في حلقها وعرضة لشماتة الشامتين.

وفي أرجوزة أخرى تتمنى الأم أن يحفظ ابنها القرآن، ويحفظ اللغة الفرنسية والعربية ويتبوأ مكانة القبطان ، وتتأسف أن جاراتها لم يتعاطفن معها بسبب فقرها، ثم تتمنى أن يكون عريسا يحضر لعرسه، ثم تتخيل أن الأثاث الذي سيكون جهازه يوم عرسه قد تم تحضيره وجاء رجال القبيلة ووقفوا معه يشاركونه فرحه ويساعدونه إلى ما هنالك من المعاني:

سعد أيامي دوم عليا*** نلحق فرحه وعيني حيه
رب يخلي وليد عمران*** إن شا الله ينجح في القران
لبلاصة حطوه قبطان*** يريح سوري مع العربية
راني لايمة على الجبران*** بعض اللي يدعو عليا
وأباه يحضر له قشه*** وأمه تنسج له في فرشه
نادو ناسه وجملة عرشة*** جاني الوالي واللي لينا
سيده ما يرضاش الحبسة*** وما يدير الحاجة الدونية¹⁴

ترقيص البنات:

لعل القارئ الكريم لاحظ غياب البنات الإناث عن أراجيز المهد، أو تنويم الأطفال عن مدونتنا، لكننا حين نأتي إلى أغاني الترقيص نجد للبنات نصيبا في هذه الأراجيز، ولعل السبب في ذلك يعود إلى البنت قبل أن تبدأ شخصيتها في الظهور كانت موضع حرج لامها في المجتمع الذي لا يرحب بالبنات الأنثى، بل يحمل المرأة المسؤولية في إنجاب البنات، وكثيرا ما تطلق المرأة أو يتزوج عليها زوجها بضرة لا لشيء إلا لأن الزوج يرغب في الإعمار، وهو لا يكون بالأنثى، إنما بالأولاد الذكور، بينما لو ولدت الأم ثلاث بنات على ساق واحدة، تضغط الأسرة

على الزوج ولاسيما والدته (ان الزواج من غير عمار دمّار) لذا لم تكن البنت الأنثى مرحبا بها.

والموضوعات التي تتناولها الأرجوزة في ترقيص البنت محدودة ، لا تعدو ان تكون إشادة بجمالها، ووصف مظاهره من طول فارع وعيون سود شعر أسود فاحم ، طويل ناعم ولباس متميز بالحلي الفضي أو ذهب، وتمنيا بان يخطبها اولو الحسب والنسب من أهل المال والجاه والسلطة:

لبست البخنوق أسود ومدقوق *** حرير من السوق من صنعة إيدي

لبست الخلال على الكعب مال *** تحسبني ومال عند العشرة نجي

لبست المشرف من لويز مصرف *** تحسبني نتعرف بنت حمودة البي

لبست المقياس على زندها غاس *** تحسبني دعاس عند العشرة نجي

لبست هاك الروبه ها الطفلة المحجوبة *** المال والسبوبة تلقاها عندي¹⁵

وفي أرجوزة أخرى تتمنى أن الكاهية وهو مرتبة تشبه محافظ الأمن في البلاد ، ومع أنها فرصة لأن الكاهية أرادها لابنه وأبوها حريص على هذه الزيجة ، لكن أمها لا ترغب في الابتعاد عنها من فرط تعلقها بابنتها:

سَعْدِي بِنْتِي الْبَاهِيَّة *** دَرَّ عَلَيْهَا الْكَاهِيَّةُ

أَبَاهَا مُوشٌ مَهْنِي *** وَأُمُّهَا مِيشِي شَاهِيَّة¹⁶

أرجوزة الانشغالات الخاصة

والأرجوزة لا تتحصر موضوعاتها في الحديث عن الطفل أو إليه ، فكثيرا ما تستغل الأم فرصة انفرادها بوليدها لتبث عبر هذه الدندنة الترنمية شكواها وهمومها في حياتها اليومية، كبعدها عن أهلها، وسوء معاملة عمتها أي أم زوجها لها،

ومشاكلها مع زوجها وأبنائها ، تغني الأم كل ذلك وهي تتاجي القمر وترقص طفلها:

ياقمره يا وقادة *** والغالي وين هي بلاده
ياقمره يا لوخية *** شكيتك بالنية
على ما ساير بي *** من الشايب وأولاده
ياقمره يا لميمه *** شكيت لك بكليمه
الراجل حشد غيمة *** والعمة النقرادة¹⁷
ياقمره يا وناسة *** في البحر غطاسة
حليل المفارق ناسه *** واش يكون رقاده¹⁸.

أرجوزة التعويذات السحرية الدينية: رأينا أن في أرجوزة التتويم خشية الأم على طفلها من الآفات المحدقة به ، وسواء أكانت هذه الآفات طبيعية كالأمراض، أو ميتافيزيقة كعين الحسود والتابعة ومس الكائنات الخفية كالجن والأرواح الشريرة، وتعتبر، فكثيرا ما يعرض الطفل الذي لا يكف عن البكاء ليلا على الطياحة، فتقول أن به مس أو تابعة (أم الصبيان) وعين حسود، وتنصح دوما بإحراق البخور والشحوم والعراعر، لكن العلاج لا يكمن في إحراق البخور فحسب إنما في كثير من الأراجيز: الجمل القصيرة المسجوعة .

وهذه الأغاني الخفيفة قد تستمد تعاويذها مباشرة من الدين، وقد تستمد من تعاويذ سحرية شائعة في الثقافة الشعبية، كالوقاية من عين الحسود باستعمال الخمسة أو الخميسة، من ثم يكون موضوع الأرجوزة عين الحاسد، وكثيرا ما تستند الأرجوزة

السحرية على عناصر من الدين وعناصر من السحر: كالأغنية التي تبدأ بالتعويدة الدينية : صلاة النبي، والحوثة ؛ أي السمكة، كتعويدة سحرية

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ *** حُوْتَةٌ تَمْشِي وَحُوْتَةٌ تُجِي

والسمكة، ترسم على الجدران، وتصاغ من الذهب أو الفضة وتعلق على صدور الصبيان وربما اعتبرت حلية للنساء، إن قوة السمكة وعجيب فعلها إذ تغطس في الماء وتختفي بسرعة مذهلة ، وتتوالد بكثرة رهيبية، جعل الخيال الإنساني يدخلها في دائرة الأساطير الغامضة . ففي الأسطورة الهندية، ربط مانو السفينة (تشبه سفينة نوح في الديانات الموحدة) بقرن السمكة التي كان صغيرة ثم كبرت بسرعة مذهلة ، وهكذا تم إنقاذ البشرية من الطوفان¹⁹. وفي الأسطورة الدينية الواردة في الديانات الموحدة الثلاثة نجد السمكة التي ابتلعت سيدنا يونس (عند المسلمين) أو يونان في كل من المسيحية واليهودية، ثم خرج من بطن يونس الحوت حيا حسب الروايتين اليهودية والإسلامية، والقصة ترمز لقدرة الله على البعث والميلاد بعد الموت²⁰.

كان السمك في الديانات الوثنية رمزا للخصب والسعادة، ويحمي ضد العين الشريرة ،وحتى اليوم كما يقول سرينج مازال معناه الرمزي العلاجي مقبولا من قبل الأهالي في وبخاصة تونس إذ ترى سمكة مرسومة على الجدران أو منحوتة على الأبواب في هذه البلاد وتسمع كثيرا عبارة الحوت من أجلك (= الحوت عليك)

وهكذا فإن القوة السحرية للسمة (سحر تشابهي)، الوفرة التكاثر السريع والقوة والضخامة أحياناً، وارتباطها بالأساطير الدينية عامة (وثنية أو موحدة) جعلتها هذه العوامل مجتمعة ، تعويذة سحرية بامتياز .

كما نجد تعويذة أخرى شائعة في هذه الأراجيز، وهي الخمسة أو لخميسة، وللرقم خمسة قوة سحرية في طمس آفة عين الحسود بصفة خاصة، والخمسة الواقية من العين الشرية ترتبط برمز ديني آخر في الأراجيز النسوية، محمد كقوة خير مقابل إبليس كقوة شر في ثنائية ضدية:

خمسة وخميس ***حاضر محمد*** وغايب إبليس

والخمسة أو لخميسة، عبارة عن راحة اليد مبسوطة الأصابع ، ويعتقد أن بسطها في وجه الحسود يمنع تأثير العين الضارة ، ولذلك لمن يخشى منه الحسد أو التأثير الضار بسبب التأثير الضار لنظرة عينيه: خمسة في عينيك.

وإذا تأملنا في الخميسة، أو الرقم خمسة نفسه وما له من دلالة ، وقوة رمزية في مختلف الثقافات نجد انها تعيده نجدها تارة إلى المقدس وتارة إلى قوة سحرية خاصة في العدد، فعند العبرانيين يرمز إلى كتب التوراة الخمسة، أو أسفار موسى الخمسة، كما إن اليد أو الخميسة هي يد مريم عندهم أخت موسى ويقولون غنها رمز لحماية يد الله، أما مسيحيو سوريا وبلاد الشام فيسمونها كف مريم إشارة إلى مريم العذراء أم السيد المسيح.²²

أما في الديانات الوثنية فقد عرفت اليد اليمنى للحماية عند السورمريين والأكاديين والتي كانت تعرف عندهم باسم كف عشتار، أو كف إانا...في

الحضارة المصرية توجد علامة man وهي كف تتفرع منها ثلاثة أصابع تشير السبابة والوسطى لأب وأم الآلهة أزوريس وإيزيس²³

فهل هي تعويذة سحرية أو رمز مقدس؟ تصعب الإجابة عن السؤال بمقدار صعوبة فك الارتباط بين السحر والدين، إذ يرى فراس السواح أن لا فرق بين السحر والدين عند منابت وجذور الثقافات الإنسانية فليس السحر إلا شكلاً أصلياً وأولياً من أشكال الدين²⁴.

فالسحر والدين كلاهما يقوم على ربط غير واقعي بين المقدمات والنتائج، لذلك فالطقس السحري لا بد أن يكون مدعوماً باعتقاد في إمكانية قدرة الطقوس على تحقيق الربط بين النتائج والمقدمات بواسطة غير طبيعية.

وتستعمل الأمهات التعويذات السحرية الدينية للحماية من الشرور المحدقة بطفلها، وكذلك للشفاء من بعض الأمراض الذي كثيراً ما ترده العجائز اللاتي يشترن في الأمر إلى أرواح شريرة كما أسلفنا أو عين حاسدة، ومن ثم تكثر الأراجيز التي تتضمن، مرة تعويذات دينية خالصة ومرة سحرية خالصة ومرة سحرة مستندة إلى الدين.

فمن الأراجيز ذات التعويذات الدينية الخالصة:

الله الله الله *** محمد رسول الله

سبققت ربي والصلاة على النبي

من سبق الله يا محمد يا علي

ومن الأراجيز ما يكون سحريا مستندا إلى الرموز الدينية، ولا سيما التعويذة الدينية الصلاة على النبي التي يعتقد انها وقاية من العين، فمن يخشى منه الحسد يواجه بقولهم : صل ع النبي!!

صلوا عن رسول الله*** وزيدو بالصلاة عليه

والله وبركة الحاج *** يدوم الفرح لُمَالِيَه

أَمِّي سَمَتْنِي الْحُوتَا*** وَحُوتٌ فِي الْبَحْرِ عَوَّامٌ

يا لله لحقنا حديث الناس علاش نطول في الأيام

اما السحرية الخاصة ،ذكر طمس عين الحسود بالعود، وإطلاق الملح :

ملح الذكر في عين من نكر

طلقنا الملح والبصل *** لا تضرك عين أنثى ولا ذكر

وربما استعين بالسحر الإحيائي animisme وهو مخاطبة المرض نفسه وإعطاء الأمر لها بأن تذهب،مثل قولهم للحزاة، وهي بقعة الإكزيما في عضو من أعضاء

الجسم:

يَا حَزَاةَ يَا مَزَاةَ *** أَمَكُ مَاتَتْ فِي الْجَنَازَةِ

أَبَاكَ مَاتَ فِي الطَّرِيقِ *** أَبْرِي يَا حَزَاةَ بِالرَّيْقِ.

الشكل الفني والموسيقي للأراجيز:

تعتمد الأراجيز النسوية إلى المباشرة، في الغالب ، وقصر الأغصان ، وخفة الإيقاع، واللغة الهشة ذات الجمل المفككة، ولا تلتزم موضوعا محددا، فهي تنتقل بصورة عفوية.اما الجانب الفني فهو ضعيف فالصور غالبا مستهلكة والسبب في ذلك النزعة الارتجالية والترقيعي.

أحيانا نجد صورة تبدو لنا مبتكرة ، لكننا لو عدنا إلى لهجة المجتمع وجدنا عبارة سائرة مسكوكة *expression idiomatique* من ذلك مثلا، الرجل حشد غيمة، وهي صورة فنية جميلة، إذا نظرنا إليها نظرة البلاغة التقليدية، نقول غنها استعارة مكنية، إذ شبهت العبارة الرجل بالسماء، فإما أن تكون صاحبة مسمى تشرق شمسها أو تلمع نجومها، وإما أن تكون غائمة، فإذا احتشد الغيم أو شكت على الانفجار بالأمطار والرعود، في صورة تعبر عن الاحتقان الذي يسبق الغضب الذي يفزع المرأة المسكينة حين يثور زوجها ثورة هوجاء.

والصورة فيها تشبيه للمعنى المجرد بالمحسوس، من أجل تقريبه إلى الأذهان في معنى أوضح وأبلغ تأثيرا.

والصور الفنية وكلها من هذا النوع ، مثل الأرجوزة التي تتمنى ان يكون ولدها سندا لها في الملمات الصعبة، فنقول:²⁵

رَآني دَعَيْتَهُ بِدَعْوَةِ الْخَيْرِ *** حَزَامٌ وَسِيرٌ نِتَحَزَّمُ بِهِ

فالحزام يشد به النطاق، وعندما يهم الإنسان بعمل من العمال التي تتطلب جهدا عضليا يشد نطاقه فيساعده الحزام على التماسك البدني لفترة طويلة، فعبارة نتحزم بيه ، تعني اعتمد عليه، في صورة مجسدة لمعنى الاستناد. ونجد أحيانا تشبيه الابن بالعكاز وهذا كثير بل نكاد نجزم ان الصور قليلة وإن وجدت فهي مستهلكة.

أما الوصف فهو مباشر، فالبخنوق أسود ومدقوق (منسوج) بإحكام، والحرير من السوق أم من صنعة يديها، والخلخال مال على كعبها وأما المشرف أي القرط من الذهب المصرفن والمقياس (أي الأساور) غاص على الزند (=جانب الذراع الذي يلي الكف).

أما إذا جئنا إلى الإيقاع ، فهو خفيف، ومتشابه في معظم الأراجيز،والجمل اللحنية متشابهة، يغلب عليها المقام البياتي وهو مقام سهل هادئ يتسع للفرح والحزن في آن معا، يستخدم للجمل الطربية كما يتسع للألحان البسيطة الذي لا يعدو أربع او خمس نغمات على أكثر تقدير وتكرر الجملة اللحنية البسيطة في البياتي دون ملل. ونقدم فيما يلي الجملة اللحنية الوحيدة التي تتكرر في أغنية من أغاني المهد، ونلاحظ أنها على مقام البياتي على الدرجة الأولى (دو)، وأما الإيقاع فهو محلي خفيف يعتمد على النقرة الواحدة. والملاحظة التي أسلفناها وهي العدد المحدود من النغمات (أربع نغمات فقط) في أغنية الهددة :

ننِّي نَنِّي نَنِّي *** مَعَاكَ رَبِّي حَنِّي

ننِّي نَنِّي

تتكون من عبارة لحنية واحدة



كما نجد أرجوزة (صلو عن رسول الله) وهي تعتمد على التعويذة الدينية أو إن شئنا الدقة العبارة الشعائرية ، ويمكن ملاحظة أنها أبدا من حيث الإيقاع وجملة اللحنية بسيطة تتكرر طوال الأغنية، ولا يزيد عدد نغماتها عن أربع، وهي من مقام

البياتي على الدرجة الرابعة (فا) وهو مقام بسيط ومع ذلك متسع للأراجيز وللأغاني الطربية المعقدة.

صَلُّوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ *** وَزِيدُوا بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ

صلو على رسول الله



أما الأغنية الثالثة التي حاولنا تمثيل جملتها اللحنية موسيقيا، فهي تعويذة سحرية تركز على عبارة شعائرية، المراد منها طرد عين الحسود، وجملتها اللحنية في غاية البساطة لا تزيد عن نغمتين.

اللهم صلي على النبي



الأغنية الأخيرة من أغاني الهددة فهي الله الله الله ياربي، ونلاحظ أن لا فرق كبير بينها وبين الأراجيز السابقة، سواء من حيث خفة الإيقاع أو بساطة الجملة اللحنية ومحدودية النغمات (لا تتجاوز أربع نغمات) وتشابه الأغاني واضح سواء

من حيث المقام أو من حيث بساطة الجملة اللحنية، أو من حيث خفة الإيقاع

الله الله يا ربي



خاتمة:

على الرغم من تكريس الذهنية الخاضعة للنزعة الذكورية التي تبدو بجلاء في الفارق لبن هدهدة وترقيص الذكور من جهة والإناث من جهة أخرى، إلا إن الأمهات يأملن في تغيير الوضع ولو جزئياً، إذ تكثر الشكوى لا من الآفات الطبيعية فحسب ، بل من (الشايب) أي الزوج ، أو من الأب أو من الأخ، وإن كان يتم الاعتماد على الابن الذكر، فإنه لا يستغنى عن البنات الأنثى في الرفع من شأن أوبوها. أما الشكل الفني والموسيقي فإن العفوية والتلقائية سبغته بالبساطة وقلة الصنعة وعدم التعقيد سواء في الأحن أم في الأداة التعبيرية

الهوامش.

¹ Youcef Nacib. Elmts sur la poésie orale. Alger 1981.p10 ينظر:

² - أحمد أبو السعد: أغاني ترقيص الأطفال منذ الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي، دار العلم للملايين .ط2، بيروت 1982. ص.23 وما يليها.

³ - ينظر :محمد حسن عبد الحافظ هل سيرة بني هلال سيرة نسوية ، موقع أرانتروبوس

⁴ - فراس السواح: دين الإنسان ،منشورات علاء الدين.دمشق.2002.ص19

⁵ - بيار بونت وميشال إيزار: معجم الأنثولوجيا والأنثروبولوجيا،ترجمة مصباح الصمد. مجد بيروت 2011 ص864

⁶ - نني : نقال للطفل :بمعنى نم ، سعدي بيك: السعد يحل بفضلك. السبحان: الله سبحانه.

⁷ -نور الدين الزاهي: المقدس الإسلامي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء2005.ص22

⁸ - فراس لسواح: دين الإنسان ، مرجع سابق. ص312

⁹ - مرسيا إلباد : المقدس والمدني، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق .دمشق1988.ص30

¹⁰ -ماكيفه حد ليس مثله احد ، أما قل هو الله احد ، ففتخذ بمثابة التعويذة التي تحميه من عين الحسود.

¹¹ - ينظر :..1988p7. Ed. Bernard Cousin: L'Enfant et la chanson

Emerson paris

¹² - تسمى في منطقة سوف القماطة ،وجاء في القاموس القمود على وزن عصفور هي الخرقعة التي يلف بها المولود ،الفيروز أبادي: القاموس المحيط ج2/ص382.

¹³ -ابن منظور : لسان العب ج7/ص43

¹⁴ - هذه الأرجوزة من أرجوزة جمعتها الطالبة لقريد رشيدة من منطقة قمار، ويبدو أن المطلع عام ومشارك ، لكن الأبيات المولية كل امرأة تنسجها حسب ما يتناسب معها هي وظروفها،غذ أن المطلع أغنية معروفة.

15- من مدونة جمعتها طالبة قريد رشيدة من قمار، والبخنوق: لباس صوف بمثابة الملاعة، الومال : مربى الإبل والماشية.. المشرف: قرط الأذنين مقياس: أساور. الروبة : الفستان. السبوبة : الثروة.

16- محمد المرزوقي: مع البدو في حلهم وترحالهم الدار العربية للكتاب تونس 1984.ص21..دز عليها : أرسل يطلبها. شاهية راغبة.

17- حشد غيمة : صورة تعبر عن الاحتقان اي أنه غاضب طول الوقت. النقراة : التي تكثر اللوم عليها

18- المرزوقي: الأدب الشعبي في تونس 233. المطلع اما بقية الأرجوزة من تسجيل صوتي ..أحضرتة طالبة خضير هنية رفقة مدونة لمجموعة من الأراجيز النسوية.

19- ينظر : فيليب سرينج : الرموز في الفن الأديان الحياة ترجمة عبد الهادي عباس ، دار دمشق د.ت ص208

20- وردت أسطورة يونس في القرآن الكريم في عدة مواضع منها سورة الأنبياء الآيات 87. وسورة الصافات الآيات 139/148 وسورة القلم الآية 48...كما وردت في العهد القديم سفر

يونا

21- فيليب سرينج المرجع نفسه .ص210/209

22- ينظر : احمد زغب : عمود الدخان ، رواسب الآخر في ثقافتنا الشعبية. دار الثقافة. الوادي 2015.ص78.

23- حسين محمد حسين طقوس درء العين. صحيفة الوسط البحرينية العدد 3358 نوفمبر 2011

24- فراس السواح : دين الإنسان: مرجع سابق ص193